

بلاغة الاقتباس في تشكيل الشخصية المتّقية

خطبة وصف المتّقين لأمر المؤمنين (عليه السلام) مثالاً

The Eloquence of Quotation in Shaping the God-Fearing Personality

A Sermon Describing the God-Fearing by the Commander of the Faithful (p.b.u.h.)

Dr. Badour Abdul Sajjad Khadem

م.د. بدور عبد السّجاد خادم

Iraq / Directorate of Education in Najaf

العراق / مديرية التربية في النجف الاشرف

asm969152@gmail.com

تاريخ النشر: ٢٠٢٦ / ٩ / ٣٠

تاريخ القبول: ٢٠٢٦ / ٨ / ٢٠

تاريخ التقديم: ٢٠٢٦ / ٦ / ٩

ملخص

إنّ النصوص الأدبية المتفرّدة في أسلوبها، العظيمة في مضامينها، الشريفة في معانيها، والقوية في ألفاظها، هي نصوص لا تنشأ من فراغ، بل هي حصيلة تلاقي نصوص فريدة مع بعضها بعضاً، لتنتج لنا نصوصاً أخرى، وتلرخنا الأدبي حافل بمثل هذه النصوص، ولعلنا نقف عند النص الغلوي الذي يمثل قمة في بلاغته وفصاحته، كيف لا ومنشئه علي بن أبي طالب، فقد استقى سيد الموحدين بلاغة كلامه من أعظم النصوص وأعلىها منزلة، وأروعها بياناً، وأجلّها مقاماً، وهو القرآن الكريم، فقد شربت روحه آياته مفصلاً، ونطق به لسانه مرتلاً، وجسد مضامينه سلوكاً، فكان عليه السلام قرآناً ناطقاً، وبحثنا هذا يتناول في طياته ذلك الأثر القرآني في كلامه عليه السلام، وبيان قدرته الكبيرة في اقتباس النص القرآني وتوظيفه، بيد أنّ بحثنا هذا لا يتسع لكل كلامه عليه السلام، بل اقتصر على خطبة المتّقين، التي تتسائر مع غرض البحث في بيان كيفية تشكيل شخصية التقيّ.

الكلمات المفتاحية: الاقتباس، الشخصية، التناص، المتّقين، نهج البلاغة.

أيلول ٢٠٢٦م / ربيع الأول ١٤٤٨هـ

السنة: الحادية والعشرون

العدد: ٥٦ / المجلد: ١

DOI: <https://doi.org/10.36324/fqh.v1i56.24506>



Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a [Creative Commons Attribution 4.0 International License](https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).
مجلة كلية الفقه - جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤.٠ الدولي

Abstract

Literary texts that are unique in style, profound in content, noble in meaning, and powerful in expression do not arise from a vacuum. Rather, they are the product of the interaction of unique texts with one another, resulting in yet another. Our literary history is replete with such texts. Perhaps we should focus on the text of Ali ibn Abi Talib, which represents the pinnacle of eloquence and fluency. How could it be otherwise, given that its author is Ali ibn Abi Talib? The master of monotheists drew the eloquence of his speech from the greatest and most exalted of texts, the most magnificent in expression, and the most sublime in rank: the Holy Quran. His soul absorbed its verses in detail, his tongue recited them beautifully, and he embodied its meanings in his conduct. Thus, he, peace be upon him, was a living embodiment of the Quran. This study explores the Quranic influence on his speech, peace be upon him, and demonstrates his remarkable ability to quote and utilize Quranic texts. However, this study does not encompass all of his speech, peace be upon him, but is limited to the Sermon of the God-fearing, which... This aligns with the research objective of explaining how the pious personality is formed.

Keywords: Quotation, Personality, Intertextuality, Pious, Nahj al-Balagha .

مقدمة

تنشأ النصوص من عملية التأثير والتأثير التي ينتجها الخطاب، فبناء أي نص لا يكون بعيداً عن النصوص الأخرى، بل إن النص الجديد يتشكل منها أحياناً، وقد يستند عليها أحياناً أخرى، والفارق بين الاثنين بين، فقد ينشأ نص من انصهار نصوص بعضها مع بعض فيولد نص جديد قد يحل محل النص القديم بيد أن ((فاعلية النص المزاج لا تقل في أهميتها وقوة تأثيرها عن فاعلية النص الحال)) (صبري، ١٩٨٦، ص ٨١) وقد يتشكل نص مستنداً على نصوص تأتي لتمنحه الجمالية والمنطقية وقوة الاستدلال، فهنا يبقى النص الأصل قائماً بذاته، لم ينصهر ولم ينحل مع نصوص أخرى، بل إن غيره من النصوص هي التي اندمجت لتمنح معانيه قوة وهذا ما عُرف عند العرب بمصطلح (الاقْتباس)، وهو فنُّ بلاغي بديعي، ارتأينا أن ندرسه في نصِّ بليغٍ من نصوص نهج البلاغة المتجلي في خطبة وصف المتقين لأمر المؤمنين عليه السلام، فقد كشفت الخطبة عن بعض صور الاقتباس التي سنبينها لاحقاً، وعلاقة هذا المصطلح بمصطلح حديث ظهر في الدراسات النقدية وهو (التناس) الذي يرى أنَّ النصوص لا تولد من فراغ ولا تظهر في فراغ وإنما تتشكل نتيجة تلاقي نصوص كثيرة انتجته، وقد يغيب النص الأصل في ثنايا النص الجديد ويتماها معه وهو بهذا المفهوم لا يختلف عما كانت تذهب إليه العرب حين تحدثوا عن السرقات الشعرية من أن كلام العرب يقع بعضه على بعض فتتوالد نصوص جديدة.

مشكلة البحث: تتمحور حول السؤال الآتي: كيف وظّف الاقتباس القرآني في تشكيل

الشخصية المتقية في خطبة وصف المتقين للإمام أمير المؤمنين عليه السلام؟
أهمية البحث: تتشكل أهمية البحث من تناوله لأحد الموضوعات المهمة في البلاغة العربية وهو الاقتباس، بيد أن البحث لا يريد الوقوف عند رصد مواقع الاقتباس من الخطبة، بل الكشف عن الوظيفة البلاغية التي يؤديها الاقتباس في بناء شخصية متقية،

وإظهار الكيفية التي أعاد بها الإمام عليه السلام توظيف الآيات أو معانيها داخل نسج واحد.

أهداف البحث: تتمثل أهداف البحث في:

١- بيان الوظيفة البلاغية للاقتباس القرآني في خطبة وصف المتقين وأثره في تشكيل المعنى.

٢- الكشف عن الكيفية التي عمل بها الاقتباس القرآني في بناء نموذج للشخصية المتقية على وفق ما أراده القرآن الكريم.

٣- الوقوف عند أهم صور الاقتباس التي تجلت في خطبة وصف المتقين، وبيان أثرها البلاغي.

٤- الكشف عن أهم الأليات لاسيما العدول الأسلوبي ووظيفتها في تعزيز الدلالة القرآنية وتعميق الأبعاد العبادية والأخلاقية والنفسية.

خطة البحث: قُسم البحث بحسب الطريقة التي تجلت فيها الوظيفة البلاغية على مبحثين، يسبقها تمهيدٌ وتلحقهما خاتمة بأهم النتائج ثم المصادر، جاء التمهيد على محورين هما: الاقتباس في اللغة والاصطلاح، والمحور الثاني: الشخصية، أما المبحث الأول فقد درس: الاقتباس الإشاري، وتناول المبحث الثاني: الاقتباس التحويري.

منهج البحث: سار البحث على منهجين هما: المنهج الوصفي لبيان الأساس النظري، والمنهج التحليلي للنص العلوي مستشفين منه أنواع الاقتباس.

تمهيد

المحور الأول: الاقتباس في المهاد النظري والاصطلاحي

الاقتباس فنٌ بلاغيّ قديم عرفه البلاغيون، وأخذ مساحة من مؤلفاتهم، وميزوا بين أنواع منه لاسيّما في القرآن الكريم بين مقبول ومباح ومرذول، ويشير المدلول اللغوي للاقتباس إلى قيمة جمالية هو شعلة من النار (الأزهري، د.ت، ج ٨، ص ٣١٨)، فاقتبس ناراً أي أخذ منها ما يحتاج إليه، ثم استعير هذا اللفظ ليشير في المدلول الاصطلاحي إلى إدراج ((كلمة من القرآن أو آية من الكلام تزييناً لنظامه وتفهيماً لشأنه)) (الرازي، د.ت، ص ١٧٣)، ونلاحظ ترابطاً بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي هو أشارتهما إلى الأخذ، بيد أنّه ليس أخذاً عابراً بل هو انتفاع يحمل في طياته سمة العمومية، والاقتباس عند البلاغيين هو ((ضربٌ من ضروب علم البديع الذي يكمل علمي (المعاني) و (البيان) قواعد البلاغة وعلومها الثلاثة، فهو أحدهما، ويشتمل علم البديع على محسناتٍ لفظية وأخرى معنوية لتحسين وتزيين الألفاظ أو المعاني بألوان بديعة من الجمال اللفظي المعنوي)) (الفكيكي، د.ت، ص ١٣)؛ لذا فهو يحتاج إلى مقدرة كبيرة في استحضار النصوص، وثقافة عالية لدى منشئ النص، حتى لا يبدو النص المقتبس جزءاً دخيلاً مقطوع الصلة عما قبله أو بعده، بل يبدو منصهراً ومنسجماً مع بعضه بعضاً، وبرى بعض البلاغيين أنّ الاقتباس لا يكون إلا في الكلام المنثور، لذا كثر الاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، أما الشعر فهو يدور في فلك التضمين الذي هو أيضاً من المحسنات البديعية والمصطلح المقترن بالاقتباس، بيد أنّ هناك كثيرٌ من الدراسات والبحوث التي تناولت الاقتباس في الشعر العربي، مما يعني أنّه غير مختص بالمنثور من دون المنظوم.

إنّ الحديث عن الاقتباس يقترن دائماً – لاسيّما في الدراسات الحديثة – بمصطلح جديد أخذ حيّزه في الدراسات النقدية وهو (التناس)، الذي أسست له جوليا كرسيتيفا التي ترى أنّه ((ترحال للنصوص وتداخل نصّي، ففي فضاء نصّ معين تتقاطع وتتناهي

ملفوظات عديدة مقتطفة من نصوص أخرى)) (كرستيفا، د.ت، ص ٢١)، فالتناص ((صهر وامتصاص لعدة نصوص غائبة بطريقة ذكية، والنص الجديد يبقى دائماً في حاجة إلى تطعيم وإثراء من نصوص أخرى)) (ياسين ونعيمة، د.ت، ص ١٧)، فهو عملية إنتاج نصوص قائمة على أساس تبادلي بين نصين سابق ولاحق، تتم عبر فعل القراءة، وهو بهذا يشبه الاقتباس، فهما يعتمدان على المخزون الثقافي والأدبي للمنشئ وقدرته على استدعاء النصوص، وإذا كان توالد النصوص رهين القارئ الحذق الواعي وثقافته العميقة، التي تشربها من ممارسته للنصوص العالية والرفيعة، فنحن أمام أعظم شخصية تشربت العلم من منابعه الأصيلة، المتمثلة بالقرآن الكريم، والنبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، فقد نشأ عليه السلام في أحضان النبوة، ووعى القرآن الكريم وعياً جعل كل ما فيه هو ترجمة حرفية لمبادئه السامية، فلا غرو في تأثره بالأسلوب القرآني، سواء على مستوى الشكل أو المضمون.

وبحثنا في القادم منه سوف يعرض أنواع الاقتباس التي وردت في خطبة المتقين التي تدور في فلك تشكيل شخصية المتقين، التي بينها القرآن الكريم في موارد متفرقة منه، وهنا تتجلى بلاغة الإمام عليه السلام في تركيب الصفات المتفرقة للمتقين في القرآن داخل مبنى خطابي يفضي إلى تشكيل صورة كلية منسبكية للشخصية المتقنية.

المحور الثاني: الشخصية

يمثل الإنسان المحور الذي تتمركز حوله كل الشرائع والقوانين بغية توجيه بوصلته نحو الطريق القويم الذي يحقق له المستوى الحياتي المنظم، فمن دون تلك الشرائع والقوانين تستحيل حياته فوضى، فالقرآن يسعى لبناء الإنسان على نحو صحيح مستعملاً أساليب متعددة ما بين ترغيبية تارة وترهيبية تارة أخرى وما هذا التعدد إلا لطبيعة النفس الإنسانية، فشخصية الإنسان ذات طابع معقد أحياناً، تزيد تعقيداً طبيعة الحياة التي يعيشها وما تؤول إليه ظروف عصره، وقد رسم لنا القرآن الكريم الشخصية التي ينبغي للإنسان المسلم أن يكون عليها، وقبل بيان معالم تلك الشخصية

نعرض إلى المدلول اللغوي والاصطلاحي للشخصية ، فهي في المعنى اللغوي تشير إلى ((سواد الإنسان إذا رأيته من بعيد، وكل شيء رأيته جسمانه فقد رأيته شخصه)) (الفراهيدي، د.ت، ج٤، ص١٦٥)، ويرى ابن منظور أنّ الشخصية من ((أشخص الرامي إذا جاز سهمه الغرض من أعلاه، والشخص: السير من بلد إلى بلد، والشخص: سواد الإنسان وغيره تراه من بعيد؛ الشخص: كل جسم له ارتفاع وظهور، والمراد به إثبات الذات فاستعير لها لفظ الشخص)) (ابن منظور، د.ت، ج٩، ص٣٦)، ويشير المعنى اللغوي للشخصية إلى الظهور والارتفاع، أما في المدلول الاصطلاحي فهي ((جملة من الصفات الجسدية والنفسية "موروثة أو مكتسبة" والعادات والتقاليد والقيم والعواطف، متفاعلة كما يراها الآخرون من خلال التعامل في الحياة الاجتماعية)) (ألبرت، د.ت، ص١١)، فالشخصية هي مدار المعاني الإنسانية ومحور الأفكار والآراء العامة، كما أنها قوام البناء المجتمعي الأصيل؛ لذا فإن أكثر تعاليم القرآن الكريم ومبادئه السامية، جاءت لبناء شخصية إيمانية قوية مؤثرة داخل النظام المجتمعي الإسلامي، ومن جهة أخرى فإن بيان ملامح تلك الشخصية يُظهر الشخصية النقيضة، ومن ثم مصيرها الأخروي، لذلك هذا الإمام حذو القرآن فاستطاع إظهار تلك الشخصية التي تتمحور حولها كل الأفكار والمبادئ القيمة التي يريد ترسيخها في نفس المتلقي، وقد حدد لتلك الشخصية _ شخصية المتقي _ أبعادها النفسية والاجتماعية والفكرية.

ولا بدّ من الإشارة إلى ملاحظة مهمة جداً يتمحور حولها هدف البحث، لا يُراد من عنوان بحثنا بلاغة الاقتباس في تشكيل الشخصية الذهاب إلى أنّ الاقتباس الاساس في بناء الشخصية وتأسيسها، بل إنّ القرآن الكريم ذكر صفات الشخصية المتقية في مواضع متفرقة من نصوصه وفي سياقات متعددة، فالغاية تكمن في كيفية توظيف الإمام الاقتباس في جمع تلك الصفات وصهرها في نسيج خطابي واحد يجمعها نظام دلالي، حتى تتجلى تلك الشخصية كنموذج قرآني متكامل، فالبحث ينظر إلى بلاغة الاقتباس كوسيلة في تشكيل صورة فنية خطابية للشخصية المتقية لا في بنائها.

المبحث الأول: الاقتباس الإشاري

سبق وإن قلنا إن الاقتباس يعتمد على ثقافة المبدع وما قرَّ في حافظته من نصوص رفيعة، وإشارات تسهم في بناء نص جديد غير مقطوع الصلة عمَّا سبقه، وللمبدع آلياته التي يتخذها في إنشاء نصّه أو بنائه، ومن تلك الآليات التي انتهجها أمير المؤمنين عليه السلام هي الاقتباس الإشاري وهو الأخذ ((من القرآن الكريم ما يشير إلى آية أو آيات من غير الالتزام بلفظها وتركيبها)) (الفكيكي، د.ت، ص ١٣-١٤)، وقد عُرِف الاقتباس الإشاري في الدراسات الحديثة بـ "الامتصاص" وهو لون من ألوان التناص الذي ((لا يجمد النص الغائب ولا ينقده، بل يعيد صوغه فقط، وفق معطيات تاريخية لم يكن يعيشها في المرحلة التي كتبت فيها، وبذلك يستمر النص غائباً غير محو، ويحيا بدل أن يموت)) (بنيس، د.ت، ص ٢٥٣)، وعند تأملنا في خطبة المتقين نلاحظ أنَّ الاقتباس الإشاري حاضرٌ على نحوٍ كبيرٍ، فقد عُرِف عليه السلام أنَّه تشرب النص القرآني حتَّى بات حاضراً في ذهنه، لذلك نلاحظ سرعة ومقدرة على استدعاء النصوص القرآنية، وتوظيفها داخل الخطبة لإظهار شخصية قوية رسمها القرآن الكريم في آيات متفرقة منه، لكن الإمام جمعها في خطبته، من ذلك قوله: ((فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ. مَنْطِقُهُم الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الْاِقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُّعُ، غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ)) (الإمام علي، د.ت، ص ٤٠٦).

بدأ الإمام عليه السلام بتعريف المتقين فقال هم أهل الفضائل، والتعريف بهم استوجب تقديم الضمير "هم" دلالة اختصاصهم بالفضائل، ثم شرع في تفصيل تلك الفضائل، وبدأ بأول فضيلة التي يمكن تمييزها بالمتقين هي (مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ) ونلاحظ أن الإمام جاء بالمصدر الميمي "منطقهم" بدل من الفعل "ينطقون"، وهذا العدول فيه دلالتان هما، أولاً: أن المصدر أشدُّ تأكيداً من الفعل، فضلاً على أن الابتداء به يعطي الجملة سمة الثبات والاستقرار خلاف الفعل، وهذا الثبات يقودنا إلى الدلالة الثانية وهي: إنَّ كل ما يصدر منهم هو موافق للحق فكأن الصواب استحالة سجية راسخة وثابتة

العدد: ٥٦
المجلد: ١
السنة: ٢١
١٤٤٨ هـ / ٢٠٢٦ م

خطبة وصف المتقين لأمر المؤمنين (عليه السلام) اختياراً
بالغة الاقتباس في تشكيل الشخصية المتقنة

فيهم، وهذا اقتباس إشاري لقوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا)) [سورة الأحزاب: ٧٠]، والسديد ((الذي يوافق السداد، والسداد الصواب والحق)) (ابن عاشور، د.ت، ج ٢٢، ص ١٢٢)، بيد أن الإمام وسّع دلالة النص المبارك فلم يقل (قولهم سديد) لأن هذا لا يعطي دلالة الديمومة لقولهم، بل يمكن أن يكون قولهم مخالف للسداد في بعض الأحيان، لكنه حين قال "منطقهم الصواب" انتقل من بيان الفعل إلى إظهار السجية كما ذكرنا، فضلاً عن أن استعمال لفظ "منطقهم" لعله اشمل وأوسع من لفظ "قولهم" فهو يشمل ما يصدر من قول وطريقة تعبير واختيار أسلوب، فالعبارة بما تحمل من تكثيف بلاغي استطاعت أن تجمع أوامر قرآنية وتوجيهات أخلاقية في عبارة قصيرة وهذه الأوامر تتجلى في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، كل هذا داخل في قول أمير المؤمنين (منطقهم الصواب)،، فهذه دلالة واضحة على أن التقوى لا تقتصر على الأعمال العبادية فقط، بل في أسلوب الخطاب أيضاً فالدين معاملة.

ثم ننتقل إلى الصفة الأخرى التي ذكرها الإمام وهي قوله: (وملبسهم الاقتصاد) ويُلاحظ هنا مقابلة دلالية بين جانب داخلي للمتقي تتجلى في (منطقهم الصواب) وبين جانب خارجي تتجلى في (ملبسهم الاقتصاد)، فالسياق يوحي بأن الإمام أراد جعل الملبس عين الاقتصاد ففي العبارة عمق دلالي يتعدى حدود الجملة وهذا العبارة هي اقتباس إشاري إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧]، فمن سمات المتقي الاعتدال في الإنفاق، فهم لا ينالون من أمور الدنيا إلا قدر حاجاتهم؛ لانشغالهم بأمور الآخرة، ثم نلاحظ اقتباس آخر متجلياً في قوله عليه السلام: (وَمَشِيَهُمُ التَّوَاضُّعُ، غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)، ففي العبارة صفتان: الأولى صفة التواضع، وهي صفة ترابنية تلازمية ناتجة عما قبلها من صفات، إذ إن ترتيب الإمام

لتلك الصفات ليس اعتبارياً، بل إنّ كلّ واحدةٍ منها هي مفضية للأخرى، وهذه العبارة هي اقتباس لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ولم يقل عليه السلام (يمشون متواضعين) لأنه قوله هذا خلاف الغاية المتوخاة فهو لا يريد بيان صفة مشيهم فحسب، بل غاية العدول هي جعل التواضع عين المشي فدمج عليه السلام بين جانب حركي وآخر معنوي خلقي، فاستحالت كل خطوة لهم مشفوعة بالتواضع ناطقة به، وهذا أشد بلاغة من وصفهم بالتواضع، مما يجعل عقل المتلقي دائراً بين الجانبين محاولاً استشفاف الصورة العلوية.

والصفة الثانية هي: غُضُّ البصر، وهذه العبارة اقتباس لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، هنا أيضاً نلمس الفارق بين القولين، فالنص المبارك فيه أمر للمؤمنين بغض البصر، أمّا الإمام فعدل عن الأمر إلى الإخبار، وهذا العدول يحمل دلالة عميقة وبلاغة فريدة فالانتقال من الأمر هو انتقال من تكليف إلى وصف تجلّى بأسلوب الخبر، مقيداً ذلك بقيد هو "عمّا حرم الله" وهنا جمع الإمام بين الجانب الخارجي والداخلي، أي بين ضبط المتقي المظهر الخارجي له وبين الضبط الداخلي المتجلي بالرقابة الروحية والوازع الديني، فالإمام يجعل المتلقي يرسم صورة ذهنية خارجية للمتقي محاطة بهالة من الخشوع والتواضع، وهنا نلمس عمق الدقة في التعبير والتوظيف القرآني الذي انصهر بالنص العلوي، مع بقاء ملامحه التي نستطيع أن نستشفها منه.

وأمام شاهد آخر في بيان صفة المتقين تجلّى في قوله عليه السلام: ((ولولا الأجل الذي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقَرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةً عَيْنٍ شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ)) (الإمام علي، د.ت، ص ٤٠٦).

يكشف الإمام في النص عن صورة حركية دقيقة جداً، تجلت عن طريق المقابلة بين "شوقاً إلى الثواب" و"خَوْفًا من العقاب" ابتدأها عليه السلام بـ (لولا) فهي تعكس ضبطاً نفسياً متأتّ من دلالتها فهي حرف امتناع لوجود، فكأنّ الإمام يشير عن طريقها

إلى أن استقرار أرواح المتقين ليس نابغاً من رغبتهم في البقاء، بل هو امتثال لأمر الله تعالى واستجابة له وانتظار لأجله فهذه صورة مكثفة الدلالة عميقة المعنى لا تقف عند عملية استحضار النص القرآني فحسب بل تتجاوز له لترسم صورة حركية نابضة، كما أنها صورة ضابطة للمتلقى تحمله على ترك التعلق بالدنيا والشوق إلى ما هو أعظم، وهذا المعنى كله مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

إن قدرة الإمام على استحضار النص القرآني وإعادة توظيفه في خطابه يدعو المتلقى إلى استحضار العلاقة بين النص القرآني والخطبة العلوية، فهي عملية تعيد توجيه المعنى القرآني داخل سياق جديد، من دون أن تنقطع صلته بسياقه الأصيل، وهذا بحد ذاته يعزز تجلي الصفات القرآنية للشخصية المتقية ويجعلها أشد حضوراً في وعي المتلقى وتأثيراً.

وفي اقتباس إشاري يظهر في قوله عليه السلام: ((إِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا، وَتَطَلَّعَتْ نَفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُسَبُّ أَعْيُنُهُمْ. وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا أَلْيَهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي أَصُولِ آذَانِهِمْ)) (الإمام علي، د. ت، ص ٤٠٧).

في النص العلوي يصور الإمام عليه السلام حال التفاعل الروحي والتشرب الوجداني لنصوص القرآن الكريم من قبل المتقين، وهو ذوبان أسهم على نحو فاعل في إظهاره الاقتباس؛ فالإمام عليه السلام في كل نص يستحضر دلالات قرآنية متعددة في عبارات قصيرة لها حمولة بلاغية، وقوله عليه السلام هذا مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

يقسم عليه السلام الآيات في النص على قسمين "آيات تشويق" و "آيات تخويف" في إشارة دلالية إلى أن الشخصية المتقية لا تكتمل بالجانب الترغبي فحسب، بل الجانب الترهبي أيضاً، بيد أن الإمام قدم الترغيب على الترهيب وهذا شأن قرآني حافظ

عليه الإمام، فالقرآن الكريم في كثير من نصوصه يجمع بين الوعد والوعيد أي بين الترغيب والترهيب في بناء الخطاب الإرشادي فجاء كلامه عليه السلام على النسق القرآني في تجسيد شخصية المتقين، ثم يصور عليه السلام الأثر النفسي لآيات التشويق على المتقين، فهم إذا مروا عليها تطلعت نفوسهم إليها شوقاً، حتى تكون حاضرة وشاحصة أمام أعينهم، وهنا يُظهر عليه السلام حالة التجلي العرفانية للمتقين فكأنهم ينظرون إلى الجنة لا عن واسطة ولا شيء يحجبها عنهم، وهنا تظهر بلاغة الاقتباس فقد حول عليه السلام الوعد الإلهي بالجنة من أمر غيبي إلى صورة حاضرة في وجدان المتقين ووعيهم.

ثم يذكر عليه السلام آيات التخويف بيد أنه جعل إصغاء القلوب في موضع التخويف بينما الرؤية في مواضع التشويق وهذا يستبطن دلالة عميقة يُظهرها الاقتباس العلوي فالرؤية تعمل على جعل الشيء قريباً وحاضراً وهذا ما يناسب مقام الوعد، أما التخويف فلما رافقته الخشية والخوف ناسبه لفظ الإصغاء، فالإمام لم يكتفِ بذكر الوعيد فحسب بل استطاع نقله إلى مستوى تفاعلي عميق بجعل القلوب مصغية قبل الأذان، فأعاد توظيف المعنى القرآني ناقلاً إياه من الإخبار بالعقاب إلى الأثر الوجداني الذي يحدثه في المتلقي أو المخاطب، واستعمال الإمام للفعل (أصغى) مع آيات التخويف لما له من دلالة تختلف عن الفعل سمع فيقال: ((أصغى إليه رأسه وسمعه: أماله، وأصغيت إلى فلان ملت بسمعك نحوه، وأصغت الناقة تصغي إذا أمالت رأسها إلى الرجل كأنها تستمع شيئاً حين يُشدّ عليها)) (ابن منظور، د.ت، ج ١٤، ص ٤٦١)، وهذا يُظهر سبب اختيار الإمام لهذا الفعل من دون غيره، فالفعل لا يدل على مجرد السماع، وإنما السماع مع التنبيه واليقظة والاهتمام، وهذا ما يوائم مواقف الخوف، كما أنّ استعمال الفعل "ظنّ" إنما جاء بمعنى اليقين لا الشك، إذ لا يستقيم الأخير في سياق المعرفة اليقينية وهذا ما جاء عليه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٧٣]. إن هذا التباين في استعمال الرؤيا في مقام التشويق،

والإصغاء في مقام الترهيب، يشير بوضوح إلى دقة الإمام في استعمال الدلالة القرآنية فهو يختار لكل صورة ما يناسبها من الألفاظ التي تحقق أعلى درجات التأثير وترسم صورة حية نابضة للمتقين.

ويطالعنا اقتباس آخر في النص العلوي متجلياً في قوله: (وَطَنُوا أَنْ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي أَصُولِ آذَانِهِمْ)، هو اقتباس إشاري للنص القرآني الذي تجلى في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ﴾ (هود: ١٠٦) .

جاء هذا النص العلوي بعد ذكر آيات التشويق ثم التخويف و الرؤيا والإصغاء، فالنص انتقل إلى ذكر صفات جهنم وهي "زفير" و "شهيق" وهذا التدرج ليس عشوائياً حتماً، بل تدرج يعمل الإمام عن طريقه على نقل تلك الألفاظ من سياق الإخبار إلى سياق التصوير البلاغي فيحمل المتلقي على أن يعيش المشهد الأخروي حتى كأنه كائن حقاً، بدليل إنَّ الإمام لم يقلْ يسمعون زفيرها وشهيقها بآذانهم، بل قال في "أصول آذانهم" وهذا تعبير بلاغي غاية في القوة والتأثير؛ لأنه يصور قرب صوت جهنم حتى كأنه استقر في أعماق سمعهم، فضلاً على أنها استعارة قرآنية يتجلى فيها عنصر التشخيص إذ جعل توقد النار وشدة غليانها، كإنسان غاضب حين يُسمع صوت زفيره وشهيقه من شدة الغضب، كذلك جهنم فكأنهم يسمعون زفيرها وشهيقها، أي صوت اضطرابها وسعير لهيبها في آذانهم، فيدخلهم الهلع والفرع مما يحملهم على تجنب ما يكون سبباً في دخولها (الموسوي، د.ت، ج٣، ص ٣٦٠)، فالإمام عليه السلام ينقل المتلقي من مواقف استحضار نعيم الجنة إلى مشاهدة عذاب الآخرة عن طريق صورة حسية تدرج في بيانها.

وفي اقتباس إشاري آخر نستشقه من قوله عليه السلام: ((وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبْرٌ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ)) (الإمام علي، د.ت، ص ٤١٠)، وهذا اقتباس لقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِّقَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]. فالإمام لم يستدع النص القرآني بألفاظه، وإنما أحالنا إلى مضمون الآية المباركة بالإشارة

التي تدعو المتلقي إلى الرجوع إلى ما وعد به الله من نصرة المظلوم، وقد استعمل الإمام عليه السلام الفعل ذاته "بُغِيَ" من دون العدول به عن صيغته، فأبقى غائية البناء للمجهول هي التوجيه نحو الفعل عينه لا فاعله، فالبغي في مدلوله اللغوي يشير إلى العلو والظلم بيد أنه الظلم المفرط المتجاوز للحد (ابن منظور، د.ت، ج ١٤، ص ٧٨)، وهذا يمنح صفة الصبر التي يريد بيانها الإمام الفضيلة الكبرى والمزية العظمى فوظيفة الاقتباس هنا تتمظهر في إداء مهمة بلاغية دلالية تتمثل في استجلاء صورة المتقي الذي يترفع عن الانتقام علماً أنّ النص القرآني ذكر العقوبة بالمثل ثم البغي وهو حين يذكرها فهذا من باب التشريع والأحكام التي تمنح الإنسان حق الدفاع والرد، أما النص العلوي فلم يذكر حتى العقوبة أصلاً فهو هنا لا يلغي الحكم عينه بل يعزز صورة المتقي تحديداً لدى المتلقي فيجعل صبر المتقي مبنياً على أساس العدل الإلهي الضابط لسلوكه، وهنا تتجلى بلاغة الاقتباس فالإمام لم يعطِ سمة الصبر بعداً تعبدياً وأخلاقياً فحسب بل جعله نتيجة ثقة بوعده الله ويقين بنصره، وهنا يكون الاقتباس وسيلة بناء صورة المتقين لا مجرد اقتباس إشاري.

المبحث الثاني: الاقتباس التحويري

بعدُ الاقتباس التحويري أعمق وأدقُّ صور الاقتباس؛ لأنه ليس اقتباساً نصياً بحتاً ولا هو اقتباس إشاريُّ له أن يحيلنا إلى النص المقتبس منه، بل هو اقتباس يعتمد إلى النص مقتطعاً إياه من سياقه ومغيراً فيه تقديماً وتأخيراً أو إضافة حرف أو نقصانه بحسب ما يقتضيه البناء النصي الجديد، وما يحقق الغرض التفاعلي والتأثيري في المتلقي، لذا فإن هذا اللون من الاقتباس يتطلب مكنة كبيرة لا تتأتى لأي أديب لاسيما إذا كان الاقتباس من النص القرآني العظيم، وهذا اللون من الاقتباس هو ما تسميه الدراسات الحديثة بـ (تناس التحوير) وقد كان لهذا الاقتباس حضوراً في خطبة المتقين تجلى في قوله عليه السلام: ((أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامُهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُّونَهَا تَرْتِيلاً... أَمَّا النَّهَارُ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءَ، أَبْرَارُ أَتْقِيَاءَ)) (الإمام علي، د.ت، ص. ٤٠٧-٤٠٨). وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ١-٤].

إذا كان الإمام عليه السلام في النصوص السابقة ذكر صفات المتقين "الصدق، التواضع، الحلم، كظم الغيظ، العفو، الصبر" وهي صفات سلوكية ثابتة فيهم لا تتحدد بزمن من دون آخر، فنجد في قوله عليه السلام في هذا النص "أَمَّا اللَّيْلُ _ إِمَّا النَّهَارُ" تقسيماً ملحوظاً للزمن ومقصوداً، فكأن الإمام يخلق توازناً زمانياً عن طريق المقابلة بين الليل والنهار، يستكمل عن طريقه صورة المتقين فبدأ بالليل وهو محل عبادتهم وخلوتهم مع الله تعالى، فرسم عليه السلام صورة حسية حركية لاصطفاف المتقين وانتظامهم، اصطفافاً يجمع بين هيبة المؤمن وذل العبودية لصلاة خصيصة ليست بفرض، واختصاصها جاء من استحبابها لا لوجوبها "وهي صلاة الليل" وتتجلى ظاهرة العدول مرة أخرى من "يصطفون" إلى "صافون" لتعطي دلالة الديمومة والثبات على الطاعة، فكسى عليه السلام الوصف أبعاداً روحية وتعبدية كما أعطى النص قوة تصويرية لهيئة المتقين حين قيامهم الليل، ثم يأتي دور الاقتباس التحويري المتجلي في

قوله "يرتلون القرآن ترتيلاً" فينقل الإمام المتلقي من سياق التكليف إلى الوصف، واستعمل عليه السلام اللفظ ذاته "يرتلون" إلا أنه غيّر في الفعل (رتل) وقد يكون هذا من باب ما يسميه البلاغيون الترصيع وهو كما عرفه قدامه بن جعفر (ت ٣٣٧هـ): ((أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد في التصريف)) (البغدادى، د.ت، ص ١١) واستعمال الفعل عينه لدلالة الترتيل على ((حسن تناسق الشيء، وترتيل القراءة: التآني فيها والتمهل وتبيين الحروف والحركات)) (ابن منظور، د.ت، ج ١١، ص ٢٦) فالإمام لم يستعمل الفعل "يقرؤون" علماً أنّ القرآن استعمله في مواضع متعددة منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، لأن الفعل "يقرأ" لا يعطي معنى "رتل" فأراد الإمام الإبقاء على الدلالة الإيحائية للفعل بما ينطوي عليه من معنى التدبر والتمهل فكأن وظيفة الاقتباس وسيلة لبيان هذا الأثر وتوجيهه لوصف المتقين. ثم يستكمل الإمام البناء البلاغي للصورة بذكر أعمال المتقين نهراً، فهو بذلك جمع بين ميدانين عباديين، الليل هو ميدان عبادة لله وخشوع له، والنهار ميدان العمل والتعامل الذي يُظهر الفضائل، فتتكمّل هنا شخصية المتقي في صورة تُظهر علاقته بالله تعالى وعلاقته بالناس.

ومن الشواهد الأخرى التي تكشف عن اقتباس تحويري قوله عليه السلام: ((تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلَتُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعاً نَفْسُهُ... مَكْظُوماً غَيْظُهُ، الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُونٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ... يَغْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَن حَزَمَهُ)) (الإمام علي، د.ت، ص ٤٠)، ففي قوله عليه السلام (مَكْظُوماً غَيْظُهُ... يَغْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ)، هو اقتباس تحويري لقوله تعالى: ﴿وَالكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فإذا كان النص القرآني ذكر صفتي "كظم الغيظ" و "العفو" في باب المدح والثناء، فإن الإمام ذكرهما هنا كجزء من بناء شخصية المتقي. ويظهر في النص العلوي عدولاً آخر من الفعل (يخشع - يقنع - يكظم) إلى الاسم (خاشعاً - قانعاً - مكظوم)، فهذا العدول كنظرائه في النصوص السابقة يحول دلالة الفعل من الاستمرار والتغير إلى الثبات والاستقرار

والديمومة، كما اسهم الجنس الناقص في (مأمول _ مأمون) فضلاً عن توافق الفواصل في (أمله، زلله، قلبه، نفسه، غيظه) في بيان دلالة تلازمية بين التماس الخير والأمن من الشر فضلاً عما يخلقه من إيقاع صوتي، و جرسٍ تنغمي يجعله عالقاً في ذهن المتلقي، كما أنها تشي بالرحمة والسكينة، وما يتمتع به المتقون من حلم وأناة.

ينتقل الإمام عليه السلام إلى صورة أخرى تجلت في خطبة المتقين هي قوله: ((يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُتَابِرُ بِالْأَلْقَابِ)) (الإمام علي، د.ت، ص ٤٠٩-٤١٠)، وهو اقتباس تحويري لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]، جاء هذا الاقتباس كجزء من بيان صفات المتقين، فالإمام لم يقتبس النص القرآني حرفياً، بل أعاد بناءه بما يناسب سياق الوصف، ناقلاً إيّاه من صيغة الإنشاء الطلبي المتجلى بالنهي "لا تنابزوا" إلى الخبر "لا يتنازبون" وهذه الانتقال تكشف عن دلالة بلاغية إذ حول الإمام عليه السلام النهي الإلهي إلى سمة ظاهرة في المتقين ثابتة فيهم بدليل أنه صدرها بـ "لا" الحاملة دلالة النفي المطلق في الحال والاستقبال، والتنازب من نبز وهو ((اللّقب، تقول: نبزه ينبزه؛ أي لقبه، والتنازب: التّداعي بالألقاب وهو يكثر فيما كان ذمّاً)) (ابن منظور، د.ت، ج ٥، ص ٤١٣) وجاءت هذه الصفة بعد أن بيّن عليه السلام جملة صفات متقدمة هي "الاعتراف بالحق" فهي تعكس قوة نفسية وشجاعة ظاهرية، فهي يعترف بالحق من دون خوفٍ أو اضطهادٍ أو ترهيب، وحتى من قبل أن يُشهد عليه، فهو لا ينتظر ظهور الأمر حتى يقَرّ بالحق، والسمة الأخرى "حفظ الأمانة"، ثم أشار عليه السلام إلى تلك البيضة الروحية والقلبية التي اتسم بها المتقي وهي (ولا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ) في كتاب الله تعالى فهو دائم الذكر له، فصفة "لا تنابزون" لم تأتٍ مستقلة عن غيرها، بل جاءت ضمن نسق كامل فهي جزء من بناء تام لشخصية المتقين، دلالة على تأكيد الإمام على المنظومة الخلقية التي يملكها المتقون فهي مكملّة للمنظومة العبادية والنفسية ولا تنفك عنها مطلقاً، فضلاً عن دلالتها بأن المتقي في شغل دائم بنفسه بعيداً عما يضرّ

غيره، فلا ينشغل بمثالب الناس ولا يبحث عن عيوبهم، فهو من نفسه في عناء والناس منه في راحة.

وإذا كنا وقفنا عند الاقتباس التحويري للألفاظ، فلعلنا نقف عند اقتباس تحويري للمعنى، أي أنّ الإمام سلام الله عليه قد لا يستدعي ألفاظ القرآن بل يستثمر معنى النص ويعيد صياغته بما يتواءم مع قصدية خطابه وقد يمازج بين الاثنين، كما في قوله: ((فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِحَبَاهِهِمْ وَأَكْفَهُمْ وَرَكِبَهُمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَائِ رِقَابِهِمْ)) (الإمام علي، د.ت، ص ٤٠٧).

إنّ هذا الجزء من خطبته عليه السلام يتأسس على تحوير معنوي يرتكز على نصين قرآنيين هما قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، وهو هنا اقتباس تحويري معنوي، فالإمام هنا استدعى المعنى القرآني من دون اللفظ وصهره في خطبته، والثاني المتجلي في (فَكَائِ رِقَابِهِمْ) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٢-١٣].

إن اقتباس الإمام من نصين كريمين وتوظيفهما معنوياً ولفظياً في نسيج خطابي واحد جاء ليرسم صورة تجمع بين الخشوع الروحي والخشوع الجسدي للذات يتجليان في قوله: (حانون، مفترشون، يطلبون) فهذه الصورة متممة لما قبلها من وصف عبادة المتقين ففي قوله (حانون على أوساطهم) تعكس انكساراً روحياً وخشوعاً جسدياً أثناء قيامهم وسجودهم، وهي كناية أيضاً عن تذللهم لله تعالى مما يجعل الصورة الجسدية وسيلة لإظهار المعاني النفسية، بيد أنّ الإمام عليه السلام خصّ بالذكر أجزاء من أجسامهم بقوله: (جباههم _ أكفهم _ ركبهم _ أطراف أقدامهم)، وهذا الاختصاص قطعاً لغاية بلاغية فلما أراد بيان انغماسهم بالعبادة وذوبانهم فيها ذكر تلك الأجزاء واحدة تلو الأخرى للدلالة على أنّ كلّ جزء هو مظهر من مظاهر التعبد لله والخضوع له فكان ذكرها أبلغ في تجسيد حال الخشوع للمتقين.

في مشهد تتجلى فيه المعرفة اليقينية التحقيقية التي يستبطنها المتقون، المعرفة الحقّة التي تجعلهم حبيسي شعورهم بالتقصير الذي تضطرم ناره في قلوبهم، جاعلة كلّ عمل صادر منهم خاضع لميزان القلّة، فلا شعور رضا يتملكهم إزاء أي عملٍ، ولا إحساس اكتفاء قبالة الكثير منه، فمن عظم الله في عينه، صغر في عينه عظيم العمل وكثيره، فعيشه كائن ما بين عدم رضا وإشفاق، وهذا ما تجلّى في قوله عليه السلام: ((ولقد خالطهم أمرٌ عظيمٌ. لا يَرِضُونَ من أَعْمَالِهِم القليل، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الكثير. فَهُمْ لأنفسِهِمْ مُتَهَمُونَ، ومن أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ)) (الإمام علي، د.ت، ص ٤٠٨).

يظهر في النص العلوي اقتباس تحويري قائم على مستويين معنوي ولفظي، فالمستوى المعنوي في قوله " لا يرضون من اعمالهم _ لا يستكثرون _ لانفسهم متهمون " مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، فالإمام عليه السلام استدعى المعاني القرآنية وأعاد صياغتها على نحو يظهر قصدية خطابه، فغاية الاقتباس تتجلى في إظهار صفة من صفات المتقين وهي: عدم الرضا " فالمتقي ينظر إلى عمله بعين القلّة وهو ما يجعله دائم الاتهام لنفسه وهذه التهمة مرجعها ((شكهم فيما يحكم به أوهامهم من حسن عبادتهم، وكونها مقبولة أو واقعة على الوجه المطلوب الموصول إلى الله)) (ابن ميثم البحراني، د.ت، ج ٣، ص ٥١٩).

أما المستوى اللفظي في قوله " مشفقون " مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]، وهنا استدعى الإمام اللفظ ذاته " مشفقون " لأنه جامع بين الخوف والرجاء وهذا ما يتساق مع النسيخ الخطابي المظهر لصفة المتقين، فالصفة التي عمل الاقتباس على بيانها هي "ترك العجب" بالاعمال، فالاقتباس على المستويين أضفى قوة روحية ودلالية وبلاغية ربطت بين الجانب الأخلاقي للمتقي بالمرجعية القرآنية، وهذا يعزز مبدأ الخوف والمحاسبة النفسية لدى المتلقي.

الخاتمة والنتائج

نستنتج مما مرَّ أنَّ الإمام عليه السلام تمكن من تشكيل شخصية المتقين في مبنى خطابي واحد على وفق ما نطق به القرآن الكريم في مواضع متعددة من نصوصه المباركة، متبوعاً ملامح الشخصية التقية التي أرادها القرآن الكريم أن تكون مثلاً يحتذيه كل فردٍ مؤمن. ويمكن أن نوجز ما توصل إليه البحث من نتائج في:

١. إن الاقتباس كفنٍ بلاغي بديعي لم يظهر في خطبة وصف المتقين غاية جمالية فقط، بل كان أداة مهمة في رسم شخصية المتقين وإخراجها نموذجاً يحتذى به.
٢. ظهر الاقتباس الإشاري الذي شاع على نحو واسع في وصف خطبة المتقين آلية بلاغية أسهمت في استدعاء الدلالات القرآنية ودمجها في بناء الشخصية المتقية داخل نسقٍ خطابيٍّ محكم.
٣. جمع الإمام عليه السلام في أجزاء من خطبته بين الاقتباس الإشاري والاقتباس التحويري، وقد يجمع ما بين الاقتباس التحويري اللفظي والمعنوي مما يسهم في الكشف عن قصدية خطابه.
٤. ظهر عن طريق دراسة الخطبة العلوية في وصف المتقين أنَّ الإمام عليه السلام كان يستثمر المعاني القرآنية ويعيد صياغتها داخل سياق جديد مبقياً على العلاقة الرابطة بين النص الجديد ومرجعته الأصيلة.
٥. أسهم الاقتباس الإشاري في بناء الجانب الأخلاقي للشخصية المتقية في حين اظهر الاقتباس التحويري الجانب التعبدية.
٦. انمازت خطبة المتقين بتنوع الإيقاع والحركات، فقد ينقلنا الإمام من حركة داخلية حية إلى خارجية والعكس بالعكس.
٧. كشفت الدراسة النقاب عن ظاهرة العدول الأسلوبية الذي أسهم على نحو فاعل في تحقيق غاية الاقتباس عن طريق تحويل الخطاب من جهة التكليف إلى جهة الوصف.

٨. ما يلحظ خلو الخطبة من الافتتاحية والخاتمة المعهودة في الخطب، ومرجع ذلك يعود إلى أنها خطبة آنية، أي وليدة الموقف الذي قيلت فيه.
٩. قلة الصور البيانية مثل الاستعارة والكناية وما كان منها جاء عفو الخاطر وبحسب ما اقتضته الحاجة للبيان. أما الفنون البلاغية الأخرى فقد ظهرت المقابلة، والسجع، والجناس لاسيما الناقص، ثم الطباق الذي ظهر على نحو أقل.
١٠. قدم الإمام عن طريق هذا التنوع الذي رسمه علم المعاني والبيان والبديع دروس تربوية وأخلاقية ودينية تعدّ أساس في بناء إنسان متكامل مؤهلاً لعمارة الأرض واستخلافها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً: الكتب

١. ألبرت، كارل. (2014). أنماط الشخصية أسرار وخفايا (ترجمة حسين حمزة). كنوز المعرفة.
٢. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد الطاهر التونسي. (1984). التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر.
٣. ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي. (١٤١٤هـ). لسان العرب (ط. ٣). دار صادر.
٤. البحراني، كمال الدين بن ميثم بن علي بن ميثم البحراني. (١٤٢٧هـ). شرح نهج البلاغة (ط. ١). وفا.
٥. بنيس، محمد. (1985). ظاهرة الشعر العربي المعاصر في المغرب: مقارنة بنيوية تكوينية (ط. ٢). دار التنوير للطباعة والنشر.
٦. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي. (2004). نهاية الإيجاز في راية الإعجاز (تحقيق نصر الله حاجي مفتي أوغلي، ط. ١). دار صادر.
٧. الأزهرى، محمد أحمد الأزهرى الهروي. (2001). تهذيب اللغة (تحقيق محمد عوض مرعب، ط. ١). دار إحياء التراث العربي.
٨. الفكيكي، عبد الهادي. (1996). الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي (ط. ١). دار النميز للنشر والتوزيع.
٩. قدامة بن جعفر بن زياد البغدادى. (١٣٢٠هـ). نقد الشعر (ط. ١). مطبعة الجوائب.
١٠. كرستيفا، جوليا. (1991). علم النص (ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، ط. ١). دار توبقال.

العدد: ٥٦
المجلد: ١
السنة: ٢١
١٤٤٨ هـ / ٢٠٢٦ م

خطبة وصف المتقين لأمر المؤمنين (عليه السلام) اختياراً
بلاغة الاقتباس في تشكيل الشخصية المتقنة

١١. الموسوي، السيد عباس. (1998). شرح نهج البلاغة (ط. ١). دار المحجة البيضاء.

١٢. الإمام علي بن أبي طالب. (2010). نهج البلاغة (تحقيق الشيخ قيس بهجت العطار، ط. ١). مؤسسة الرافد للمطبوعات.

ثانياً: الرسائل والأطاريح

١. ياسين، بلعباس، ونعيمة، بلقاسمي. (2016). التناص في رواية المخطوطة الشرقية لواسيني الأعرج (رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، الجزائر).

ثالثاً: البحوث المنشورة

٢. صبري، حافظ. (١٩٨٦). التناص وإشارات العمل الأدبي. مجلة عيون المقالات، (2).

